اللغة العربية الفصحى بين المشافهة والكتابة

Modern Standard Arabic: Between Orality and Writing

عبد الرزاق عبيد*

جامعة الجزائر2 - الجزائر

abderrezak.abid2024@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2024/04/14 - تاريخ القبول: 2024/05/14 - تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

كانت اللغة العربية الفصحى شأنها شأن جميع اللغات البشرية الطبيعية الأخرى تتشكل من لهجات عديدة متقاربة لا تحول دون التبليغ بين أفراد المتحدثين بها مشافهة، ومع مرّ الزمن أخذت تتقلص شفاهيا وتتوسع كتابيا تاركة المجال للغة عامية هجينة؛ وعليه يتميز المستوى الكتابي بجملة من الخصائص، كما تميز المستوى الشفاهي بجملة من الخصائص الأخرى؛ مما أدى إلى قيام كل واحد منهما بوظائف دقيقة في الممارسات التعبيرية، وهذا ما يستوجب التنبيه على ضرورة العمل العلمي الدائم لجعل اللغة العربية تتصدر جميع الوظائف وتصبح بذلك لغة حيوية تداولية بين جميع أفراد المجموعة اللسانية الناطقة بها.

الكلمات المفتاحية: لغة؛ لهجة؛ سجل؛ تبليغ؛ وظائف؛ حيوية اللغة؛ لسانيات اجتماعية؛ لسانيات تقابلية.

* المؤلف المراسل: عبد الرزاق عبيد

Abstract:

Like all natural human languages, Modern Standard Arabic emerged from multiple closely related dialects that facilitated communication among its speakers orally. Over time, it contracted orally and expanded in written form, clearing space for a hybrid colloquial language. Consequently, the written level of Arabic is characterized by specific features, while the oral level exhibits distinct characteristics, each serving precise functions in expressive practices. This underscores the ongoing scientific endeavor to ensure that Arabic assumes all roles effectively, thereby becoming a dynamic and communicative language among all speakers within its linguistic community.

Key words: language; dialect, register; communication; functions; language vitality; social linguistics; contact linguistics.

يشيع بين عامة الناس وليس خاصتهم أن مصطلح "لغة" ينطبق على اللغة المكتوبة وحدها أي اللغة التي لها خطوط للكتابة، التي تستعمل في المواقف الرسمية كالتعليم والإدارة والصحافة والشعائر الدينية وغيرها. ويشيع بينهم أيضا أن مصطلح "اللهجة" التي يستعملها السواد الأعظم من الناس لا تعد لغة وتخلو من القواعد النحوية والصرفية[1]، وبذلك فهي وضيعة وأنزل مرتبة من اللغة المكتوبة. والواقع أن اللغة العربية الفصحى التي وصلتنا كانت لغة مشافهة قبل أن تكون لغة كتابة، وكانت تتشكل من لهجات عديدة. وما زالت مستمرة في بعض اللهجات ببلادنا غنية بأسماء البيئة الطبيعية والمحيط والنطق الصحيح للأصوات الأسنانية كالثاء والذال والظاء مما يؤهلها لأن تكون كنزا كبيرا لإثراء اللغة العربية الفصحى. وليس اعتباطا أن تسمى إحدى لجان المجمع الجزائري للغة العربية بـ"لجنة قضايا الاستعمال اليومي للغة العربية" وذلك لما في الاستعمال اليومي للهجة من أرصدة تجعلها مصدر سعة للغة العربية الفصحى، وفي الآن نفسه منهجية سليمة لتهذيب المستعمل وتفصيحه، وإدماجه ليكون لغة كتابة ومشافهة يومية.

يجمع المتخصصون في اللسانيات على أن كل لغة تتكون من سجلات عديدة[2]، ومن لهجات[3]، وقد تكون تلك اللهجات تتميز بتأديات مغايرة للنظام التعليمي المدرسي[4]، وأن جميع اللغات البشرية الطبيعية؛ بما في ذلك أنظمتها الثانوية التي هي اللهجات والسجلات، تقوم على مبدأ التقطيع المزدوج[5]، وأن الوظيفة الرئيسية لهما معا في المجتمع هي التبليغ[6]؛ فإذا امتنع التبليغ واستغلقت دلالات التواصل بين المستعملين ولو بصعوبة حينذاك نكون أمام لغة أخرى سواء أكانت مكتوبة أم شفاهية، بعدت أم قربت.

ومعلوم أيضا أن أفراد المجتمعات حتى في أعظم أمم العالم تقدما ورقيا يتواصلون بلغة أو لغات مكتوبة في مواقف، ويتواصلون بلهجة من لهجات اللغة الشفهية في مواقف وأماكن أخرى. ولم تشذ اللغة العربية عن هذه القاعدة فقد كان جميع أفراد المجتمع الجاهلي يعدون فصحاء وإن اختلفت التأديات فيما بينهم[7]. حيث كانوا يتواصلون فيما بينهم بلغة عربية معربة سليقة، ولم تكن اللهجات المستعملة بينهم تحول دون التبليغ فيما بينهم. وما إن يحل العصر الإسلامي حتى يبدأ اللحن أو إن شئنا تبدأ لهجة أخرى في الظهور، وفي مزاحمة اللغة العربية

الفصحى؛ فقد ذكر الأنباري أكثر من خبر يتعلق بالبدايات الأولى للحن أو لهذه اللهجة الجديدة المخالفة لسنن لغة الأعراب ومن ترتضى عربيته على حد قول سيبويه.

فمن الأخبار أن أبا الأسود الدؤلي دخل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فوجد في يده رقعة مكتوب فيها: "الكلام كله اسم وفعل وحرف..."، فأمره أمير المؤمنين أن ينحو هذا النحو. ويذكر أن عليا سمع أعرابيا قرأ (الخاطئين) في الآية الكريمة ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحَاقَّة : ٣٧] فوضع النحو. ويذكر أن أعرابيا أقرأه أحدهم الآية الكريمة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التَّوْبَة:٣] بكسر لام رسوله بدلا من ضمها، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا الأسود أن يضع النحو. ويذكر أن زياد بن أبيه هو الذي أمر أبا الأسود أن يضع النحو[8]. فهناك إذن جملة من الأخبار التي تصب في باب واحد هو اللحن الذي أخذ يتغلغل إلى لسان العرب، وأنه لا عاصم من المحافظة على كتاب الله وكلام العرب الفصيح إلا وضع قواعد النحو باعتباره المعيار القويم الذي يحتكم به على الصواب من الخطأ، وهذا ما حدث فعلا، ولكن ما لم يمكن التحكم فيه هو العودة بجميع المستعملين للغة العربية الفصحى إلى سابق عهدها والسبب في ذلك أن "اللغة تتغير على مرّ الزمن كي تستجيب لمتطلبات الإبلاغ داخل المجموعة البشرية الناطقة بها"[9]. ولا يمكن أن يتم التحكم فيها إلا إذا توفرت جملة من الشروط وهذا ما سنتعرض له في آخر هذا المقال.

وإذا حصل أن تخللت لغة العصر الإسلامي الفصيحة الأخطاء النحوية غالبا، فإن العصر الأموي استفحلت فيه ظاهرة الأخطاء المخالفة للغة العرب الفصحاء، فأصابت القواعد النحوية والصرفية كما أصابت المفردات المعجمية. ونكتفي في هذا المقام بشاهد واحد يتمثل في حوار بين الحجاج بن يوسف وأحد النخاسين: "قال الحجاج لرجل من العجم نخاس: أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟ فقال النخاس: "شريكاتنا في هوازها وشريكاتنا في مداينها وكما تجي تكون". فقال الحجاج: ما تقول؟ ففسروا له ذلك"[10]؛ بمعنى أن شريكيه في الأهواز والمدائن يرسلونها إليه على النحو التي هي عليه. والواقع أن الحجاج نفسه وهو الفصيح المصقع لم يسلم لسانه مرة من بعض هذه الهفوات[11].

ويتبين من هذا الشاهد أن هناك مستويين تقابليين في لغة المشافهة. وسيستمر هذان السجلان في الصراع إلى أن يتقلص عدد الفصحاء سليقة ويصبحوا أفرادا بعدما كانوا عشائر وقبائل، مما جعل علماء اللغة والأدباء يتتبعون الأعراب الفصحاء ويتقربون منهم للتأكد من ملحة نحوي أو فهم كلمة غريبة، فكانوا لا يأخذون من الأعرابي حتى يتأكدوا من أنه باق على فصاحته وأنه لم يتأثر بالمحيط اللغوي الهجين الذي صار شائعا في لغة المشافهة خاصة. فكانوا يدسون في كلامهم للمخبر عبارات المولدين مثل: "إذا عزّ أخاك فهن"، أو "مكره أخاك لا بطل" فإذا ارتبك الأعرابي وظهرت عليه علامات الاندهاش والاستغراب تأكدوا من أنه باق على فصاحته، وإن قبلها ولم يستنكرها أعرضوا عنه.

ومع ذلك فإنه "كان لا يزال ممكنا في أوائل العهد العباسي أن يلاقي المرء في جنوب البرتغال في الغرب، إلى خراسان في الشرق، قبائل عربية، وأن يسمع من أفواهها عربية بدوية خالصة لا يشوبها هجنة ولا عجمة"[12].

ومنذ ذلك التاريخ لازم اللغة العربية الفصحى ذلك السجل ولم يفارقها إلى اليوم. وصارت اللغة العربية الفصحى تتعلم في حلقات الدروس ويتدرب عليها الطلاب مشافهة وكتابة، وصارت بجانبها لغة هجينة سليقية يتواصل بها الأفراد في البيوت والشوارع وغيرها. وعندما وصف مروان بن أبي حفصة معاصره حماد الراوية بأنه "لُحنةٌ لحّانة" أجابه معتذرا: "يا أخي إني رجل أكلم العامة فأتكلم بكلامها"[13].

والحاصل أن اللغة العربية الفصحى استأثرت مشافهة وكتابة بالأدب الرفيع والفكر المبتكر والعلوم وكل ما هو رسمي، واحتكرت اللهجة المشافهة خاصة ولم ترق إلى الكتابة إلاّ لماما. ولعل أهم ما يتميز به كل مستوى من هذين المستويين ينحصر في النقاط الآتية:

* لغة المشافهة أداة سمعية: حيث تبتدئ المتتالية الصوتية بما توفره الرئتان من مخزون هوائي في شكل أصوات مختلفة المخارج والصفات تطرق أذن السامع، وتنتهي بانتهاء ذلك المخزون، ثم تستأنف العملية من جديد كلما تطلب الموقف الخطابي ذلك. ويتعذر على من لا يعرف اللغة أن يميز بين عناصرها. ولغة الكتابة أداة مرئية: تتكون من سلاسل خطية ترمز إلى حروف، وتنعزل كل كلمة عن الكلمة التي تأتي بعدها بواسطة بياضات،

بحيث يسهل على الناظر إليها عموما التمييز بين عناصرها، بقطع النظر عن معانيها لاسيما إذا كان النص يحتوي على علامات التنقيط مما يساعده أيضا على معرفة الجمل والفقرات.

* تتميز لغة المشافهة بالتنغيم: ذلك أن قسما يسيرا من توصيل المعنى يتم بواسطة التنغيم الصوتي، حيث إن رفع الصوت أو خفضه، وجهره أو همسه، وحشرجته أو رقته، كل ذلك يعطي للمتتاليات الصوتية دلالات إضافية زائدة عن حد السياق اللساني الصرف. وإذا كانت عبارة: "صباح الخير" مثلا يراد بها تحية الصباح وفي الوقت المعلوم من النهار، فإنها تصبح بواسطة التنغيم عتابا أو رجاء أو تنبيها أو تحذيرا وهلم جرا. وقد وصل ببعض ممثلي المسرح حد العجب في ذلك، ويذكر رومان ياكبسون أن ممثلا في المسرح الروسي كان يلون صوته في كلمتي "هذا المساء" بما يزيد عن أربعين معنى مختلفا[14].
* لغة الكتابة بديل للأصوات المنطوقة؛ ولكنها بديل غير موضوعي لافتقارها إلى الخصائص الصوتية. ولعل أهم ما تتميز به هو النمطية والسكونية والتساوي الكامل بين الخطوط؛ فلا يختلف رسم حرف أو كلمة من موضع إلى آخر إلا من حيث حجم الخط إن أراد له صاحبه ذلك. وعلى الرغم من تضمين النص المكتوب بعدد من رموز الترقيم إلا أن تلك الرموز تبقى محدودة من حيث التعبير عن كل المواقف التي يقتضيها سياق الحال الصوتي. ولا تزيد عن الفاصلة للسكتة القصيرة، والنقطة للسكتة الطويلة، والتعجب، والاستفهام وغيرها.
* تتميز لغة المشافهة بكونها لغة مطلقة ذات أسلوب مبتذل حر (style relâché) قائم على التلقائية (la spontanéité). وتتميز لغة الكتابة بكونها لغة محافظة ذات أسلوب منتقى (style soutenu) قائم على الإختيار الدائم.
* الوحدة المعيارية للغة المشافهة هي البناء (le syntagme)؛ وهو كل مجموعة من العناصر الواقعة بين سكتتين؛ سواء أكانت اسما أم فعلا أم حرفا أم

جملة. والوحدة المعيارية للغة الكتابة هي الكلمة (le mot)؛ وهي كل عنصر أو مجموعة من العناصر واقعة بين بياضين غالبا.

* تتميز لغة المشافهة بالتساهل في القواعد النحوية بسبب مبدأ الاقتصاد في الجهد المبذول لتوصيل المعنى (قانون المجهود الأدنى= la loi du moindre effort)، فتهبت العلامات النحوية وتتشابك مع الجذور المعجمية إلا إذا تعمد المتكلم نطقها وحرص عليها. ولعل عوامل التساهل والتشابك والتداخل من إدغام للأصوات وحذف وتسهيل وغيرها هي التي جعلت البعض من غير المتخصصين في علم اللغة يعتقدون أن اللغات العامية خالية من القواعد النحوية. وتتميز اللغة المكتوبة بوضوح العلامات النحوية؛ فتظهر للعيان على شكل رموز مصاحبة للجذور المعجمية في اللغة العربية، ولسهولة رؤيتها وبروزها اعتقد البعض أيضا بأنها مقتصرة على اللغات المكتوبة دون الشفوية.
* تقوم اللغة الشفهية على اختصار الكلمات وحذفها أحيانا وإدغام بعضها في بعض، وذلك لتكفل التنغيم الصوتي والظرف المكاني والاجتماعي بإكمال المعنى. وتحتاج اللغة المكتوبة إلى إتمام الكلمات وعدم اختصارها وإطالة نسيجها مهما بلغ، وكل حذف أو نقص في التركيب قد يؤدي إلى اللبس والغموض في توصيل المعنى لأن اللغة المكتوبة تقوم على المعيارية في كل عنصر من عناصرها.
* تتميز لغة المشافهة بحضور المرسل والمتلقي في مكان واحد، وعليه جريان المشافهة في زمن واحد (باستثناء وسائل الاتصال الحديثة اليوم من هاتف، وشابكة وغيرها). وتتميز لغة الكتابة بغياب المرسل عن المتلقي وإمكانية اختلاف زمن الكتابة عن زمن القراءة.
* تقوم اللغة المكتوبة كليا على السيمياء كتابة ورموزا.
* تتميز اللغة الشفوية عن الخطية الزمانية؛ بمعنى تعاقب الفترات الزمانية لتعاقب الأصوات الكلامية. وكذلك عدم القدرة على تصويب الهفوات اللسانية والأخطاء اللفظية لمرور الزمن المخصص لكل حرف، إلا إذا تراجع المتكلم عن الخطأ ولكن ذلك سيكون على حساب زمن جديد آخر. وتتميز

اللغة المكتوبة بالخطية المكانية؛ بمعنى وجود مساحة فارغة لتصوير الحروف. وخلافا للغة الشفاهية فإن اللغة المكتوبة تقبل تصويب الأخطاء بالشطب تارة والمحو تارة أخرى والتفكير الطويل في إنجاز كل حرف من حروفها دون أن يؤثر ذلك كثيرا في محتوى الخطاب اللغوي زمنيا.

* تتميز جمل اللغة الشفوية بالبساطة والِقصَر وعدم التعقيد. وتتميز جمل اللغة المكتوبة بالتعقيد والطول وتفرع الجمل بعضها عن بعض والتقديم والتأخير وهلم جرا.
* يتميز معجم اللغة الشفوية غالبا بالكلمات المألوفة، وبالتكرار والحشو واستعمال العبارات المنمطة التي لا وظيفة لها في اللغة أحيانا سوى الإبقاء على مواصلة الحديث، مثل: هل فهمتني، أتسمعني، أأنت معي... إلخ. ويتميز معجم اللغة المكتوبة عادة بالكلمات المختارة والمعبرة عن المعاني الدقيقة، وبتجنب التكرار والحشو والكلمات الزائدة عن حد تبليغ الخطاب.

إن هذه النقاط التي أتينا على ذكرها تبين بوضوح أن الفروق بَيِّنة بين اللغة الشفهية واللغة المكتوبة في جميع الألسنة البشرية سواء أكانت فصحى أم عامية. وهذا التمييز لا يعني تفضيل إحداهما عن الأخرى بقدر ما يعني أن لكل منهما وظيفة لا غنى عنها في المجتمع، ذلك أننا نستخدم اللغة في العديد من الوظائف يوميا دون شعور منا. فاللغة التي نكتب بها غير اللغة التي نتشافه بها. واللغة التي نتشافه بها نصنفها تصنيفات عديدة أيضا؛ من لغة منتقاة بعد أن نكون قد أخضعناها للمراقبة الذهنية الدقيقة، إلى لغة تلقائية غير مراقبة قد تصل حد الابتذال أحيانا مع الأصدقاء الحميمين. ومن لغة للتعامل مع الباعة والتجار إلى سجلات للتعامل مع الأطفال الصغار كتابة ومشافهة.

إننا حينئذ أمام سجلات (registres) متعددة ومستويات مختلفة من لغات المشافهة وليس لغة واحدة. وهذه المستويات أو السجلات قد أحس بها علماؤنا القدامى كما أحس بها المعاصرون؛ فهذا الجاحظ مثلا في كتاب "البيان والتبيين" يكتب قائلا: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من

ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات. وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[15].

وكما أنه لا يستقيم أن نكتب رسالة جامعية أو موضوعا فلسفيا باللغة العامية، فإنه لا يستقيم أيضا أن نكتب كلام السوقة والدهماء والغوغاء في بعض المواقف بلغة الأدباء والعلماء. وهذا ما نبه إليه صاحب "البخلاء" في مقدمة كتابه قائلا: "إن وجدتم في هذا الكتاب لحنا وكلاما غير معرب، ولفظا معدولا عن وجهته فاعلموا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب، ويخرجه عن حده إلا أن أحكي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء وأسماء العلماء كسهل بن هارون"[16].

وكما تختلف السجلات اللغوية لدى الفرد الواحد، فإنها تختلف أيضا لدى الجماعات اللسانية المتباعدة مساحة ومكانا، وليس صحيحا أبدا أن لغات الأمم المتحضرة منسجمة تماما كتابة ومشافهة، ومتطابقة تماما ناحية وجهة. وما أكثر الدراسات اللسانيات الاجتماعية في هذا الموضوع؛ وهي دراسات تناولت الجوانب الصوتية والإفرادية خاصة، والجوانب التركيبية/الصرفية عامة، وهي اختلافات يرصدها الباحثون المدربون، ويحس بها الأفراد الذين يقيم بعضهم قرب بعض، ولا يشعر بها الغرباء الأبعدون عن اللغة إلاّ قليلا.

من البديهي اليوم -كما ذكرنا آنفا- لدى جل اللسانيين المعاصرين أن لسان كل أمة هو عبارة عن جمع من اللهجات التي تصل حد التباين -في بعض الأحيان- أصواتا ومفردات؛ فما من لغة حينئذ إلا وتتسم بعدد معين من الاختلافات اللهجية. يقول ج. أ. فيشمان: "إن اللغات الشفهية في المساحات الشاسعة غالبا ما تنطق بكيفيات قد تكون شديدة الاختلاف، وهذه الاختلافات قد تكون ذات طابع صوتي (فونولوجي)، كما هو الحال مع {الرئيس} كنيدي (KENNEDY) الذي كان يقول: (Cuber) بدلا من (Cuba) ويقول: (Vigah) بدلا من (Vigor). وفي الآن نفسه كان المواطن من فيلادلفيا (PHILADELFIE) يقول: (Cubah) و(Vigah). والاختلافات اللهجية قد تتعلق بالمفردات...كما تتعلق بأقسام الكلام الأخرى مثل النظام النحوي"[17].

إن بعد الأمصار يؤدي حتما إلى خلق اللهجات، واختلاف الطبقات يؤدي أيضا لاختلاف السجلات والمستويات اللغوية. غير إن هذا الاختلاف لا يحول دون عملية

التواصل بين أفراد الجماعة اللسانية المنتمية للغة نفسها، ولا أدل على ذلك من اختلاف اللغة الفرنسية في باريس عن اللغة الفرنسية في مارسيليا، أو اللغة الفرنسية الشفهية في فرنسا من جهة، وكندا أو بلجيكا أو سويسرا من جهة أخرى. في حين أنه لا تختلف دولة عن دولة أخرى في مستوى الكتابة للأسباب التي ذكرناها آنفا، حتى أن القارئ الذي يجهل الموطن الأصلي للكاتب لا يمكنه أن يستنتج شيئا من خلال الكتابة المعيارية، ويكتشف بسهولة تامة موطنه إن تلفظ ببضعة كلمات مشافهة.

وليس هذا بالشيء الجديد، وإنما هو قديم فقد سبق لعلماء العربية أن دوّنوه منذ أمد بعيد فقد كتب الجاحظ قائلا: "وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام"[18].

إن اختلاف اللهجات ليس حكرا على وطننا العربي الحديث دون القديم، ولا على العرب دون غيرهم من الأمم الأخرى. وإذا كانت لغات بعض الأمم اليوم تقترب فيها نسبيا لغة العامة من لغة الخاصة، واللغة الشفوية من اللغة المكتوبة، فليس ذلك بسبب نزول الخاصة إلى العامة، وإنما سبب ذلك هو علو المستويات الثقافية والتعليمية.

إن رسالة الباحثين اليوم على اختلاف تخصصاتهم هي رفع مستوى العامية بواسطة التعليم ووسائل الإعلام المختلفة لتقترب من مستوى الفصحى. وليرحم الله الجاحظ عندما قال: "من أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما... والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامي والخاصي. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام"[19].

إن الوصول إلى "المعنى الشريف، والصواب، وإفهام العامة، وإحراز المنفعة" بمعنى الرفع من قيمة اللغة العربية في جميع مناحيها أفكارا وعلما ووظيفة هو ما

يجعلها لغة حية، ولغة حيوية دولية بين العامة والخاصة، وفي بلادها وخارجها[20]. ذلك أن اللغة ليست أداة تبليغ وحسب؛ بل هي محرك اجتماعي قوي في يد المجموعة اللسانية بما تحمله من تجارب وخبرات ومفاهيم علمية؛ فإذا أحسنت المجموعة توظيفها رفعتها، وإن قللت من شأنها وأهملتها حطتها، وتراجعت عنها. وأهم المؤشرات التي تتسبب في تراجع اللغة تتمثل في قلة الوظائف الاجتماعية المسندة لها، وضعف انتقالها من جيل إلى آخر، وفيما إذا كانت في حالة ازدواجية مع لغة أخرى أقوى منها مكانا وعلما ووظائف.

وأما أسباب قوة اللغة وحيويتها فتتمثل في أعداد المتحدثين بها، وسلوكهم تجاهها، وتعبئة المجتمع، والدعم الحكومي والمؤسساتي لها، والسياسة اللغوية في ميدان التربية، والتخطيط اللغوي[21].

وعليه نكرر القول: إن من أسباب جعل اللغة العربية لغة حية كتابة ومشافهة هو:

1. أن يعتز مجموع أفرادها بلغتهم ويعظموها ويوقروها ويتجندوا لها، وأن يؤمنوا بها ويعملوا على جعل الآخرين أيضا يعظمونها ويعترفون بدورها في موطنها الأصلي وخارجه. إن اعتزاز الأمة بلغتها شرط فعال لبقائها لغة حياة يومية راقية تثرى بما فيها من إمكانات داخلية وتتقوى بما يصلها من روافد خارجية؛ ذلك أن اللغة الحية حقا هي التي تكون قادرة على استيعاب ما يدخل فيها وهضمه وإخضاعه إلى قواعدها الخاصة بها. يقول أوغيستو كارلي: "إذا كانت اللغة تتفاعل مع الضغوط الخارجية وذلك بإدخال العناصر الخارجية بكيفية ما، وتكييفها مع نظامها اللساني الداخلي فإنه يمكن اعتبار قوة الدمج تلك والتكييف كدليل حقيقي على حيويتها اللسانية"[22].
2. المساحة الجغرافية الواسعة والكثافة السكانية: إن اللغة العربية تعد واسعة الانتشار ولا تعد لغة أقلية إلا إذا قورنت باللغة الإنجليزية المهيمنة اليوم على العالم كله تقريبا، وحصار اللغة الفرنسية لها عندنا في الجزائر؛ فقد كانت اللغة العربية ولا تزال تتربع على مساحة جغرافية تمتد من ضفاف المحيط الأطلسي إلى بحر العرب، فإذا أضفنا إليها العالم الإسلامي

ممثلا في الشعوب التي اعتنقت الإسلام وما فيه من تراث باللغة العربية مشافهة وكتابة، ولا سيما في الشؤون الدينية، فإنه يمكنها فعلا أن تكون من اللغات القوية الحية بجدارة.

3. الوظائف: تعد اللغة حيوية كلما كانت لها وظائف تغطي جميع مجالات الحياة. وإذا كان نصيب اللغة العربية المكتوبة كبيرا نسبيا في عدد من الوظائف مما يؤهلها للبقاء والتقدم إلى الأمام والصدارة، فإن نصيبها من المشافهة في الكثير منها ضئيل بالنظر إلى المساحة الجغرافية التي تتربع عليها، والكثافة السكانية التي تتشكل منها. ولهذا يجب أن نبذل جهدا كبيرا في موضوع المشافهة خاصة، وذلك بتشجيع الأجيال على التواصل بالفصحى، وتشجيع الفرق المسرحية ونوادي الخطابة ووسائل التواصل الاجتماعي والصحافة المسموعة والمرئية، وفوق كل هذا ترتيل القرآن الكريم بصوت مسموع وإنشاد الشعر كي تتحرر الألسنة، وتحل عقدة التلعثم الملازمة لكثير من المتخصصين.
4. إن اللغة العربية لها تاريخ حافل بالإنتاج الأدبي والعلمي قلما وصلت إليه اللغات الأخرى، وهو سند قوي يؤهلها أن تنافس اللغات الأخرى لما فيها من ذخائر علمية ومخطوطات، ومادة غزيرة جاهزة يمكن بشيء من الجهود أن تعبأ وتعبئ المجتمع لينطلق منها.
5. الدعم السياسي: تتوفر اللغة العربية الفصحى على دعم سياسي من قبل جميع الدول العربية تقريبا ومن كثير من المؤسسات الدولية؛ وهو دعم يتمثل في هذه المجامع اللغوية المنتشرة في أغلب الدول العربية وفي شيء من التعليم بمراحله المختلفة، غير أن هذا ليس كافيا، ولكي تأخذ اللغة العربية مكان الصدارة التي هي جديرة بها يجب أن تكون هي أداة التبليغ كتابة ومشافهة في "أماكن صنع القرار من إدارة ومؤسسات خاصة وعامة وتعليم وخدمات اجتماعية وعدالة وصحة واقتصاد وصناعة وثقافة، ووسائط إعلامية، وجمعيات مدنية ترفع لواءها وتدافع عنها[23].

ويبقى عامل أساسي ومهم جدا هو تربية النشء على التواصل باللغة العربية الفصحى؛ فالأطفال عند اكتسابهم للغة لا يفرقون بين سجلاتها ولا بين مستوياتها

ولا حتى بين اللغات الأجنبية كالفرنسية والانجليزية مثلا، فهم يتعلمون وكفى. وقد لاحظت الدكتورة شريفة غطاس والدكتور رابح دوب في محاضرتيهما حول لغة الأم[24] أن الأطفال في مرحلة التعليم الابتدائي يتواصلون بلغة عربية سليمة ولكنهم ما إن ينتقلون إلى المراحل التكميلية حتى تتغلب عليهم العامية الشفوية، وتتلعثم ألسنتهم، وهذا ما نشاهده اليوم حتى في المراسلات القصيرة المكتوبة لطلبة الجامعة التي يكتبها بعضهم لبعض، وأحيانا يتوجهون بها إلى أساتذتهم. وأما المشافهة بلغة عربية فصيحة فقلما نسمعها في غرف الدراسة فضلا عن المحيط. ومعنى هذا أن هناك مشكلة في نقل اللغة من جيل إلى آخر؛ ذلك أنه "كلما انتقلت اللغة من جيل إلى آخر كلما ازدادت حيويتها، وكلما تعطل نقلها كلما قلت حيويتها"[25]؛ ورحم الله الشيخ عبد الحميد بن باديس القائل:

يا نشء أنت رجاؤنا*** وبك الصباح قد اقترب.

- الإحالات والهوامش:

[1] اهتم الباحثون الفرنسيون إبان الحقبة الاستعمارية باللهجة العامية في المغرب العربي ولاسيما في الجزائر، ووضعوا عددا من المؤلفات في النحو والصرف والمفردات والسياقات، وكانوا أحيانا يضمّنون تلك المؤلفات نصوصا عامية كاملة مترجمة للغة الفرنسية. ولم يكن ذلك حبا في العربية وإن كانت عامية ولكن لمساعدة المعمرين والسلطات العسكرية في الاستيلاء على البلاد والعباد، وهو الهدف الرئيس، ومحاربة واستبعاد اللغة العربية الفصحى التي يعلمون أنها أكبر مقوم، وأهم عنصر من عناصر هوية الشعب الجزائري، فحاولوا بشتى الطرق طمسها ومحاربتها واستبدالها بالعامية في التعليم، وشجعوا العامية لتكون هي لغة الإدارة. غير أن الشعب الجزائري تمسك بلغته، وأنشأ لها المدارس الخاصة والزوايا والكتاتيب وحافظ عليها إلى أن استقلت البلاد فاستعادت اللغة العربية مكانتها.

ويلاحظ من خلال القائمة القصيرة الآتية أن التأليف بالعامية قد شرع فيه مباشرة عند دخول الاستدمار الفرنسي، واستمر النشر بالعامية إلى غاية استقلال الجزائر:

- Sylvette Larzul, Grammatisation et lexicographie de l'arabe algérien au XIX s.

- Joanny Pharaon, Grammaire élémentaire d'arabe vulgaire, ou algérienne à l'usage des français, Toulon, 1832 .

- Jean Joseph Marcel, Le Vocabulaire français - arabe du dialecte vulgaire d'Alger, de Tunis et de Maroc, à l'usage des militaires français, 1830.

- Benjamin Vincent, Vocabulaire français - arabe, suivi de dialogue à l'usage de l'armée d'expédition d'Afrique,1830.

- Jean –Honora Deleporte, Principe de l'idiome arabe en usage à Alger, 1836.

- Alexandre Bellemar, Grammaire arabe (idiome d'Algérie) à l'usage de l'armée et des employés civils de l'Algérie, 1850.

ينظر أيضا:

- P. M. Bresnier, La Grammaire arabe: Principe élémentaire de la langue arabe, revue africaine, n° 11, 1867, pp 251-256.

- Auguste Cherboneau, Observations sur l'origine de la langue africaine, revue africaine, n°12, 1868, pp 69-78.

- Auguste Cherboneau, Observation sur le dialecte arabe de l'Algérie, In: revue africaine, n° 13, pp 288-314.

[2] أول من استعمل مصطلح السجل (registre) هو: (ريد – Reid) في الخمسينيات من القرن الماضي ويعني به: كل خاصية لسانية تتطابق مع حالة اجتماعية معينة، وهو عند (فرغيسون –

Ferguson) حالة تحيل إلى نظام لساني ثانوي يتميز بعدد من البنى الخاصة، التي لا تستعمل إلا في ذلك المقام، فهو ذلك الاستعمال الذي نتوجه به لمخاطبة الأطفال، أو الكتابة إليهم، أو للتعاليق على المباريات الرياضية، أو حتى وصفات الطبخ. ينظر:

Marie-Louise Moreau, Sociolinguistique : Concepts de base, Liège, Pierre Mardaga édition, 1997, p238.

[3] اللهجة (dialecte) في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض [...] وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح على تسميتها باللغة. ينظر: إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط6، 1984م، ص16.

[4] Ibid, Marie-Louise Moreau, Sociolinguistique : Concepts de base, p120.

[5] Bernard Pottier, Le Langage : Les encyclopédies du savoir moderne, Paris, Centre d'étude et de promotion de la lecture, 1973, p80.

[6] أندري مارتيني، مبادئ اللسانيات العامة، تر: أحمد الحمو، وَ: إش: عبد الرحمن الحاج صالح وفهد عكام، المطبعة الجديدة، دمشق، 1984-1985م، ص.ص21، 22.

[7] قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمّى "الألفاظ والحروف": كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ، أسهلها على اللسان عند النطق [...] والذين عنهم نقلت اللغة العربية [..] هم قيس، وتميم، وأسد [...] ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن حضري قط [...] ولا من لخم ولا من جذام [...] ولا من قضاعة وغسان وإياد [...] ولا من تغلب واليمن [...] ولا من بكر [...] ولا من عبد القيس وأزد عمان [...] ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، و لا من ثقيف وأهل الطائف [...] ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم. (بتصرف). ينظر:

عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شر وضب وتص وتع: محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1986، ج1، ص.ص211- 213.

[8] أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ط2، 1970، ص.ص18- 21.

[9] أندري مارتيني، مبادئ اللسانيات العامة، ص13.

[10] أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، شر وضب وتع وتر: يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1406هـ – 1986م. ص.ص175، 176.

[11] المرجع نفسه، ص176.

[12] يوهان فك، العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، تر: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت، ص18.

[13] المرجع نفسه، ص.ص70، 71.

[14] R. JAKOBSON, Essais de Linguistique Générale, Paris, éd de minuit, 1973.

[15] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، بيروت، 1968، ج1، ص97.

[16] الجاحظ، البخلاء، دار صادر للطباعة والنشر وَدار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1963، ص1.

[17] A. Fishman, Sociolinguistique, Paris, Nathan-Bruxelles, Labor, 1971. p31

[18] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص17. وَ: ينظر أيضا: الخبر الطريف المروي عن محمد بن المناذر الشاعر في نفس الصفحة، والذي لم نذكره لطوله.

[19] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص95.

[20] عبد الرزاق عبيد، رحلة الكلمات العربية إلى اللغة الفرنسية، مجلة الممارسات اللغوية، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر. مج12، ع4، 2021، ص.ص9-25.

[21] Jean Romain Kuiesso, Frankline Labergere Dtchebeba Derjeugang, Transmission intergénérationnelle et vitalité de la langue Kom, Cameroun, revue akofena, n° 006, V1, 2022, p262.

[22] Nadia Lakhdari, La vitalité ethnolinguistique de la communauté algérienne de Montréal de langue maternelle arabe, Université de Québec à Montréal, 2008, p10.

[23] Augusto Carli, Pour une mise à jour du concept de vitalité linguistique, in: revue de Linguistique Latine du Centre Alfred Ernout, n° 8, 2012, p3.

[24] Eric Forgues, Autonomie, vitalité et identité des communautés en situation minoritaire : Proposition d'un cadre conceptuel, International Journal of Canadian Studies, n° 42, 2010, p189.

[25] شريفة غطاس، واقع استعمال اللغة العربية بين البيت والمدرسة، محاضرة في مقر المجمع الجزائري للغة العربية بتاريخ: 2024/02/21. وَ: رابح دوب، تهذيب السنن اللغوي بين تلقائية لغة الأم ومعيارية اللغة الأم، محاضرة في مقر المجمع الجزائري للغة العربية بتاريخ: 2024/02/21.

- قائمة المصادروالمراجع:

* المراجع باللغة العربية:

1. ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، عيون الأخبار، شرح وضبط وتعليق وترتيب: يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1406هـ – 1986م.
2. الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، الطبعة الثانية، 1970.
3. أندري مارتيني، مبادئ اللسانيات العامة، ترجمة: أحمد الحمو، وَ: إشراف: عبد الرحمن الحاج صالح وفهد عكام، المطبعة الجديدة، دمشق، 1984-1985.
4. أنيس (إبراهيم)، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة السادسة، 1984.
5. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البخلاء، دار صادر للطباعة والنشر وَدار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1963.
6. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، بيروت، 1968، الجزء الأول.
7. دوب (رابح)، تهذيب السنن اللغوي بين تلقائية لغة الأم ومعيارية اللغة الأم، محاضرة في مقر المجمع الجزائري للغة العربية بتاريخ: 2024/02/21.
8. السيوطي (عبد الرحمن جلال الدين)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وضبط وتصحيح وتعليق: محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1986، الجزء الأول.
9. عبيد (عبد الرزاق)، رحلة الكلمات العربية إلى اللغة الفرنسية، مجلة الممارسات اللغوية، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر. المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، 2021.
10. غطاس (شريفة)، واقع استعمال اللغة العربية بين البيت والمدرسة، محاضرة في مقر المجمع الجزائري للغة العربية بتاريخ: 2024/02/21.
11. يوهان فك، العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، دون تاريخ.

*** المراجع باللغة الأجنبية:**

1. A. Fishman, Sociolinguistique, Paris, Nathan-Bruxelles, Labor, 1971.
2. Alexandre Bellemar, Grammaire arabe (idiome d'Algérie) à l'usage de l'armée et des employés civils de l'Algérie, 1850.
3. Auguste Cherboneau, Observations sur l'origine de la langue africaine, revue africaine, n°12, 1868.
4. Auguste Cherboneau, Observation sur le dialecte arabe de l'Algérie, revue africaine, n° 13.
5. Augusto Carli, Pour une mise à jour du concept de vitalité linguistique, revue de Linguistique Latine du Centre Alfred Ernout, n° 8, 2012.
6. Benjamin Vincent, Vocabulaire français - arabe, suivi de dialogue à l'usage de l'armée d'expédition d'Afrique,1830.
7. Bernard Pottier, Le Langage : Les encyclopédies du savoir moderne, Paris, Centre d'étude et de promotion de la lecture, 1973.
8. Eric Forgues, Autonomie, vitalité et identité des communautés en situation minoritaire : Proposition d'un cadre conceptuel, International Journal of Canadian Studies, n° 42, 2010.
9. Jean Honora Deleporte, Principe de l'idiome arabe en usage à Alger, 1836.
10. Jean Joseph Marcel, Le Vocabulaire français - arabe du dialecte vulgaire d'Alger, de Tunis et de Maroc, à l'usage des militaires français, 1830.
11. Jean Romain Kuiesso, Frankline Labergere Dtchebeba Derjeugang, Transmission intergénérationnelle et vitalité de la langue Kom, Cameroun, revue akofena, n° 006, V1, 2022.
12. Joanny Pharaon, Grammaire élémentaire d'arabe vulgaire, ou algérienne à l'usage des français, Toulon, 1832.
13. Marie-Louise Moreau, Sociolinguistique : Concepts de base, Liège, Pierre Mardaga édition, 1997.

14. Nadia Lakhdari, La vitalité ethnolinguistique de la communauté algérienne de Montréal de langue maternelle arabe, Université de Québec à Montréal, 2008, p10.
15. P. M. Bresnier, La Grammaire arabe: Principe élémentaire de la langue arabe, revue africaine, n° 11, 1867.
16. R. JAKOBSON, Essais de Linguistique Générale, Paris, éd de minuit, 1973.
17. Sylvette Larzul, Grammatisation et lexicographie de l'arabe algérien au XIX s.